مي زيادة (١٩٤١-1886)

من كتاب : سوانح فتاة .

في محكمة الجنايات

زرتُ اليوم مكاناً لعلّه أرعب الأمكنة بعد مسارح الجرائم الخفية ومواضع تنفيذ الاعدام . أعني القاعة الكبرى في محكمة الجنايات حيث يُصدرُ العدل البشريُّ أشد احكامه على مَن يكون في عرفه مجرماً . ذهبتُ إلى تلك القاعة حيث تنعقدُ المحكمة العسكرية لمحاكمة المتهمين بأنهم من أعضاء « جمعية الانتقام » المتآمرة على خلع السلطان ، وقتل الوزراء ، وقلب الحكومة ، والتحريض على الثورة في البلاد . ما أرهب هذه الكلمات التي تصوّر للمخيلة مشاهد الظلم والفتك والدماء والدمار ! ومن مميزات الحركة النسائية الجديدة أن المصريات امتزجن بالحياة العامة فصرن يظهرن في كل اجتماع قومي ، حتى وفي أحرج المواقف وأوجعها للقلوب الوطنية . كذلك حضرَ بعضهن جلسات المحكمة بالتتابع .

دخلتُ الدهليز الواسع بين الجنود المنتصبين يمنةً ويسرةً ، وخلالهم يختلط المحامون بأصحاب القضايا ويناقشونهم بأصوات خافتة على رغمٍ منهم . فتلقّاني جندي حاجبٌ قدّمتُ لهُ تذكرة الدخول فأوصلني إلى آخر . وسار بي هذا إلى ثالث وأنا أعدُّ الازرار الذهبية المنضدة على كتف كلٍ منهم ، وأتظاهر بعدم الاكتراث لأسكت دقات قلبي . وما كان حتى رأيت ضابطاً ينحني امامي وهو يفتح باباً لم اسمع لهُ ما يشبه الصوت . فوجدتني بغتةً في قاعة متوسطة الاتساع قد تبلغ مساحتها العشرين متراً طولاً على عشرة أمتار عرضاً . وبدلاً من أن أخطو وراء الجندي الذي سار ليدلّني على مكاني ،

ظللت واقفة وأنا في أجفالي اتفرّسُ في الوجوه المستوية في صدر القاعة وقد اشرأبّت نحوي جميعاً . غير أن الذي تكفّل بإيصالي عاد إليّ ثم مشى يهديني حتى أجلسني على المقعد الرابع ، وعلى مقربة مني « قفص » المتهمين .

أجميع الحضور يحدّقون فيّ أم أنا في هلوعي أظنهم فاعلين ؟ رفعتُ بصري اتبيّن الأمر في سيماء القضاة أولاً فإذا بهم يرقبونني وقد ادركوا في سرّهم مقدار جزعي واضطرابي . وهل من نظرٍ ينفذ إلى أعماق النفس ويعرّيها من أستارها كنظر القاضي ؟ ربما كان هناك شخص واحد يفوقه براعة ، وهو الكاهن الكاثوليكي الذي يكسِبُه تعاطي الاعتراف واستماع شكايات الناس ، حنكة ودراية ومعرفة بأسرار النفوس لا يماثله فيها من العلمانيين غير من شفّت بصيرته بأنوار الإلهام .

لم أجرأ على النظر إلى المتهمين . وشعرتُ بأن اسلم النظرات عاقبة وأضمنها براءة هي نظرة اصعدُ بها الى سقف المكان مستوضحة هندسته وزخرفته .

زخرف محكمة الجنايات ؟ ما هذا المجون ؟

نعم ، هناك زخرفٌ وتنميق ، وهو عبارة عن خطٍّ عريض نُقش بالنقوش الحجرية البيضاء ودار حول سقف القاعة في أعالي جدرانها الكلسية الجرداء . وقطعتْ خطوطٌ أخرى من نوعِه السقف ثلاثاً وأنالته شكلاً مرضياً . ثم هبطت عيناي إلى الحوائط ، وفي احدها القائم شمالاً شبابيك كبيرة واسعة رُفعت الأستار الكتانية إلى أوجها فتدفق خلالها نور النهار الداخل من الحديقة الفاصلة بين هذه القاعة وبين الشارع حيث يسير الناس أحراراً غير مقيَّدين . ولما فرغتُ من تفحّص الحائط ولنوافذ والستائر ، واستنزفتُ عليها كلَّ ما جال في دماغي من ملاحظة ومناقشة وتعليق – مشى بصري قليلاً قليلاً إلى صدر الغرفة حيث استوت هيئة القضاء

لتحكم بقسطاس العدل .

أين ذهب اضطرابي حتى واجهتُ نظر القضاة بهدوء هذه المرة ، وبي شعور يشبه الراحة والطمأنينة ؟ فعدّلتُ جلوسي واستعدادي العقلي لأضع الأشياء في مواضعها .

هيئة المحكمة تتألف من قضاة عسكريين أربعة يلحق بهم المترجم ، ويرئسهم قائد تبدو مرتبته في الأشرطة الحمراء المذهبة على كتفيه وكميّه ، وفي صفّي الأشرطة الملونة الصغيرة الممتدّين على صدره واحداً فوق الآخر ليدلاّ على ما عنده من مختلف المداليات والأوسمة . ويتوسط الهيئة « نائب الأحكام » وهو قاض في المحاكم المختلطة وأحد كبار رجال القانون الإنجليزي ، وهو وحدهُ بين القضاة يلبس الشعر العارية الابيض والرداء الأسود . وإلى اليمين كرسي المدعي العمومي ، أو مدّعي الملك ، كما يسمونه في هذه القضية ؛ وهو كنائب الاحكام يلبس الشعر الأبيض والرداء الاسود . وأمام المحكمة مكان المحامين ، فموقف الشهود ، تتناسق متتابعة وراءه مقاعد القاعة التي أجلس أنا في صفها الرابع ، وإلى يميني قفص المتهمين الذي تنتهي حدوده من الجهة الأخرى قرب هيئة المحكمة.

أيّ المواقف أغرب من موقف المتهم إزاء القاضي ؟ وأي كرهٍ قسري بين هذين الاثنين ـ بين شخصٍ ضعيف أعزل تحت رحمة الآخر ، وبين هذا الآخر الذي وُجد ليفسر الحركات والمعاني ويتصرف كيفما شاء في مصلحة المتهم وراحته وحياته . أيّ عداء وأي اختلاف أعظم من هذا ؟ مع ذلك فالاثنان خاضعان معاً لجميع نواميس الطبيعة وأهوائها . فلو تساقط الثلج الآن لانتفضنا معاً ، ولو زلزلت الأرض زلزالها وفغرت فاها لالتهمتهما معاً . ولو انتشر مكروب خبيث لتناولهما معاً ولتألم كلٌّ على حدةٍ بمثل ما يتألم الآخر . بل ها هم جميعاً كلّت أدمغتهم وأغمضوا عيونهم وفي كل منهم احتياج يظهر حتى وفي تصلّب جلوسه ، احتياج إلى أن يتثاءب ويتمطّى

كما يفعل الأسد ، أو كما تفعل هرّتي البيضاء عندما تأبى ملاعبة من لا يعجبها . وعندما تخرج كلمة هزلية من فم المحامي أو القاضي أو الشاهد تلمع عيونهم جميعاً ويشتركون في الضحك . ولئن بعث القضاة إلى المتهمين بنظرة نافذة مستفسرة باردة كالسلاح الأبيض ، حيناً بعد حين ، فلواحظ هؤلاء تخال باسمة في الغالب .

نعم ـ في جميع عيون المتهمين ابتسام ، وهيئة القاعة عموماً بسيطة ليس فيها ما كنت أتوقعهُ من مظاهر الغم والعبوسة . كأنها مكتبٌ لأي عمل من الأعمال التجارية مثلاً . وبينا المدعي العمومي يتابع شكايته مستطرداً في الاتهام فيأتي بالحجة بعد الحجة ، وبالإثبات تلو الإثبات ـ إذا بالمتهمين لاهون عن أقوالهِ بما بين أيديهم من جرائد ومجلات يقلبون صفحاتها ، ثم يتحادثون كأنهم يتبادلون الآراء في الموضوع الذي يقرأونه ولا علاقة له بالمحاكمة أصلاً . ثم يرتسم الحزن في سواد عيونهم وتبرز على جباههم أحكام نقشها لهم القدر في كتابهِ النحاسي ، فيتأملون قليلاً ويتهدون . إلا أن اجتماعهم إجمالاً يشبه اجتماع مدرسيّ جدي . أقول « مدرسي » لأنهم من طلبة المدارس العليا . فهذا كان يدرس الطب ، وذاك القانون ، والآخر من طلبة الأزهر ، وغيره من مدرسة القضاء الشرعي ، وهيئة التلمذة عليهم جميعاً إلا عبد الرحمن بك فهمي الواقف في مدخل الممّر إلى القفص كالجبار ، وعليه ملامح الحكام والوزراء [1] .

حسن بزتهم يشير إلى درجتهم الاجتماعية ، وفي عيونهم ترقص أنوار الحياة ، وعلى شفاههم يبسم رونق النضارة ، وفي ذقون بعضهم تلك الطبعة

(١) عبد الرحمن بك فهمي سكرتير لجنة الوفد المركزية متهم بأنه كان يمدّ « جمعية الانتقام » بالمال والسلاح ، وهو من وجهاء البلاد وكان مديراً لمديرية بني سويف (المدير في مصر يوازي الوالي في سوريا قبل الانقلاب الأخير بل قد يفوقه أهمية) ثم عيّن وكيلاً لوزارة الأوقاف .

الجاذبة التي يحسبها أهل الفراسة علامة الحب الشديد ورمزاً إلى أن في صاحبها احتياجاً للشعور بأن لهُ من يعزُّهُ ويحنو عليه . وإن حُرِمَهُ شقي شقاء لا يدركه غير أمثاله . فكيف يحتمل هؤلاء حياة السجن وراء الأبواب المقفلة وفي عناء الأشغال الشاقة ؟ وكيف يحتملون القيود والأغلال وكل ما هيأه المجتمع من نظام ولباس ويحوّل يأس الجاني إلى سخرية ظاهرة ؟ وأي التوسلات ستنطلق من هذه الأفئدة ، وأي الدموع ستلهب هذه المحاجر ؟

تلاشى فجأة ما يحيط بي ، واتسع القفص ، وأضيفت إليه جميع الأقفاص في جميع محاكم العالم وقد حشر فيها الألوف والملايين . ورأيت في عيون الجناة صور جناياتهم ، وفي عيون الأبرياء صور براءتهم ، وفي جميع العيون أشباح الخوف والفزع . ثم انهدمت جدران القاعة وارتدَّت حدودها إلى ما وراء جميع المحاكم في الماضي والحاضر والمستقبل . وصار القضاة الخمسة ألوفاً وملايين ، ونظراتهم النافذة المستفسرة الباردة كالسلاح الأبيض تتّجه نحو العيون المذعورة . وسمعتُ الأحكام على العبيد وعلى الملوك ، على المظلومين وعلى الظالمين ، وتراءت لي السجون بغمومها والأشغال الشاقة بذلّها ، وآلات التعذيب بهولها ، وبدت أمامي وجوه الجرائم والفظائع والشرور فتقطّعت أوصال إحساسي . وفي هذه الغرفة التي كانت تبسمُ منذ هنيهة سمعتُ صلصلة السلاسل وقعقعة القيود ، ولمحتُ أحكام الإعدام على لابسي البذلات القرمزية السائرين نحو المشانق عراة الأقدام ...

ما هذه الضوضاء التي تخرج بي من هذا الكابوس الفكري ؟ أكلّ هذه جلبة الحبال في الأعناق ؟ كلا ، بل حانت ساعة الانصراف ، ورفعت الجلسة ، وانفرط عقد المجتمعين وها هم يخرجون إلى الدهليز الوسيع المؤدي إلى الشارع . وهناك عند العمود الضخم المنتصب أمام المحكمة رفع أحد المتهمين نظره إلى إفريز العمود الأعلى ثم أداره سريعاً إلى الأرض

وأرسل زفرةً محرقة . فنظرتُ إلى الافريز الأعلى وإذا بطائرين قد وقفا جنباً إلى جنبٍ ينشدان أنشودة الحياة والحب والحرية .